وتبقى كلمة

obeikandl.com

obeikandl.com

الـذى يتصفـح التاريـخ الإسـلامي، يـرى أن الحضـارة الإسـلامية غـزت العـالم كلـه، وامتـدت ظلالها مـن الصـين إل الأندلس، وظلت هـذه الحضـارة تبعـث أضواء التقـدم والنهوض فى كل أرجـاء الدنيا، واعـترف بذلـك كل مؤرخـى العالم، شـرقه وغربه، شمالـه وجنوبه .

ومـا كان يمكـن للحضـارة الغربيـة أن تزدهـر بعـد ظـلام العصـور الوسـطى إلا بفضـل الحضـارة الإسـلامية، ومـا قدمتـه مـن قـوة دفـع هائلـة لمختلف العلـوم والآداب والفلسـفات.

ومآثـر المسـلمين لا تـكاد تحصـى مـن كثـرة مـا قدمـت مـن عطـاء فـى مختلـف مجـالات الحياة .

فابـن رشـد ترجمـت أعمالـه وفيهـا فلسـفة أرسـطو إلى اللاتينية، ومـن خـلال هـذا الفكـر المسـتنير وشـرحه لآراء أرسـطو وعـرض وجهـات نظـره كسـر حاجـز الظـلام فـى أوربـا وقتلهـا مـن الظلمات إلى النـور، وكذلـك كانـت الفلسـفة الإسـلامية لهـا دور فـى التنويـر، وتقـدم المسـلمون فـى مجـالات العلـوم والرياضيـات، وتأثـر الغـرب بـكل هـذا التقـدم .

فقـد كان الإسـلام هـو خـاتم الديانـات السـماوية، وجـاء للنـاس كافـة، فهـو لم يـأت لأمـة دون أمـة، أو لشـعب دون شـعب، ولكنه جـاء لـكل الأمـم والشـعوب، بـلا إكـراه: «لا إكـراه فـى الديـن».

ومـن هنـا كانـت الحضـارة الإسـلامية حضـارة تقـدس العلـم والعقلانيـة، أى أنهـا حضـارة علميـة عقليـة، وهـذا هـو سـر تفوقهـا، وسـر انتشـارها، فلـم تكـن حضـارة منغلقـة، ولا كانـت

حضارة متحجرة، بل حضارة تفتح ذراعيها لكل جديد، وتهضم حضارات الأمم الأخرى، وتؤثر فيها وتتأثر بها، ومن هنا انطلقت بلا حدود .، تهدى البشرية إلى حياة أكثر أملاً وإشراقًا، وتحارب الجهل والخرافة، وتندد بالاستبداد والطغيان، لأنه لا تقدم بلا حرية، ولا إرادة بلا حرية، والإسلام كفل ذلك كله لأنه يشجع على الاجتهاد، وسيادة روح كل عصر بما لايمس ثوابت الدين الحنيف.

ومن هنا نرى المستشرقة الألمانية سيجريد هونكة (١٩١٣م – ١٩٩٩م) تقول: «إن الإسلام هو ولا شك أعظم ديانة على ظهر الأرض سماحة وإنصافًا نقولها بلا تحيز، ودون أن نسمح للأحكام الظالمة بأن تلطخه بالسواد، وإذا ما نحينا المظالم التاريخية الآثمة فى حقه، والجهل البحث به، فإن علينا أن نتقبل هذا الشريك والصديق مع ضمان حقه فى أن يكون كما هو».

والمتابع للفتوحات الإسلامية الكبرى التى بدأت شرارتها عندما أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم جيشًا لمحاربة الروم فى مؤتة، ثم قاد بنفسه جيشًا لمحاربتهم فى «تبوك» ولكنهم لم يواجهوا جيش المسلمين، ثم انطلقت الفتوحات الإسلامية فى عهد الصديق عندما أرسل الجيش الذى كان النبى عليه الصلاة والسلام قد أمر بإعداده للقيادة رغم حداثة سنه، بعد انطلقت الفتوحات الإسلامية بقوة قاصدة مهاجمة الإمبراطورية الفارسية فى العراق، والرومانية فى الشام ومصر والشمال الإفريقي، حيث انطلقت هذه الفتوحات بسرعة البرق فى

عهد الفاروق عمر بن الخطاب، وخلافة عثمان، واستطاعت أن تدخل الجيوش الإسلامية المدائن عاصمة كسري، وتحطم الإمبراطورية الفارسية، وتنطلق لتضم الشام وفلسطين ومصر من الرومان، ثم تتابع سيرها فى الشمال الإفريقى لتبلغ شواطىء الأطلنطي، وتضم إسبانيا فى العصر الأموى !

وفى بداية الخلافة العباسية استطاع أحد الأمويين وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، استطاع أن يهرب من بطش العباسيين، ويتجه إلى الأندلس، وهناك استطاع أن يبنى دولة أموية قوية، لا تقل فى قوتها وحضارتها عن الخلافة العباسية فى المشرق..

وعبد الرحمن هذا هو الملقب فى التاريخ بصقر قريش، وقد امتدت ظلال الحضارة الإسلامية إلى جنوب فرنسا، ونهضت أوربا عندما أرسلت بعوثها لتلقى العلم فى أسبانيا على يد العرب.

والفتوحات الإسلامية ظلت محتفظة بجيوشها على مدى قرون، على عكس الفتوحات التى سبقتها، مثل فتوحات الإسكندر الأكبر، أو الفرس، أو الروم، لسبب بسيط جدًا هو أن الفتوحات الإسلامية كانت تستند إلى حضارة وقيم الإسلام ومبادئه، فهو دين يدعو للعلم والتقدم والتأمل فى كتاب الكون مثل التأمل فى كتاب الله، بجانب ما جاء به من عقيدة التوحيد الخالص، وما جاء به من شريعة تحض على العدل والمساواة والرحمة، وكل القيم النبيلة.

ولولا ما حدث من مشاهد دامية لبعض الخلفاء وبعض الولاة، من قسوتهم التى فاقت كل وصف من أجل الحفاظ على عروشهم، والترف الذى عاشوا فيه وله، وخروجهم عن الإطار التى نادت به الشريعة السمحة، فسلكوا سوكًا مغايرًا لما فى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وأداروا ظهورهم للشورى وهى من أهم أسس الشريعة الإسلامية، فقد كان الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم يشاور الناس فى الأمور الذى لا تتعلق بالوحي، ولكنهم سفكوا الدماء، ولم يراعوا حرمة الإنسان فى سبيل مجد زائل، ودنيا زائلة، وهكذا رأينا كيف لطخت الدماء من أجل السلطة، الوجه المشرق للإسلام، وكل هذه الأمور كانت من أسباب انهيار هذا الصرح الهائل.، انهارت الإمبراطورية الإسلامية.

وللدكتور محمد حسين هيكل باشا كتاب ليس فى شهرة كتبه الأخرى مثل (محمد) و(فى منزل الوحي) ورواية زينب الذى كتبها فى أول الأمر دون أن يكتب اسمه عليها، وفتح بذلك طريقًا للرواية العربية التى ازدهرت فيما بعد، وأصبحت توازى الأدب الأوربى نفسه...

وهذا الكتاب اسمه (الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة)، وهذا الكتاب صدر بعد وفاته عن دار الهلال.

وفيه يتحدث عن أسباب قوة الإمبراطورية الإسلامية، ولماذا تدهورت، إنه يرى أن قيام الإمبراطورية الإسلامية حادث فذ فى تاريخ الإنسانية..، فقد بدأ الغزو العربى للشام والعراق

سنة خمس وثلاثين وستمائة لميلاد السيد المسيح، وبعد خمس عشرة سنة من هذا التاريخ، كانت الإمبراطورية الإسلامية قد اشتملت على فارس ومصر وشمال إفريقيا، وامتدت إلى حدود الهند وتاخمت الصين.

وقيام إمبراطورية بهذه السعة، في هذا الزمن القصير، معجزة لذاته، و كم من حوادث التاريخ ما يشبه هذه المعجزة، وحسبنا أن نشير إلى هروب الإسكندر وإلى حروب المغول، امتدت حروب الإسكندر مشرقة من مقدونيا إلى الهند وتناولت مصر. وامتدت حروب المغول غربًا من قلب الصين إلى أوربا، ولكن حروب الإسكندر وحروب المغول، لم تكد تنتهي حتى تناثر عقد الإمبراطورية التي نشأت سلطانها، وعادت الدول التي انتظمها الغزاة إلى نظامها الأول، أما الإمبراطورية الإسلامية التي مدت لواءها في هذا الزمن القصير، على هذا الجانب الكبير من العالم، فقد استقرت قرونًا امتدت أثناءها إلى الأندلس، وانتشرت في الهند، وأظلت جانبا من الصين، وهي إلى ذلك، قد أقامت حضارة سادت شئون العالم كل هذه القرون، فلما آن للإمبراطورية الإسلامية أن تنحل بقيت هذه الحضارة تناضل عن نفسها، وهي اليوم تبعث من جديد.

هذه هي المعجزة حقا...!

وقد حاول كثيرون تأويلها والتماس أسبابها، ولما يبلغوا من ذلك غاية يطمئن الباحث المنصف إليها كل الاطمئنان.

فإذا صح أن كانت عبقرية الإسكندر الحربية سبب فتوحاته العظيمة، وأن تنسب فتوح جنكيزخان ونابليون إلى مثل هذه العبقرية، فمن العسير أن ينسب قيام الإمبراطورية الإسلامية إلى عبقرية حربية من هذا القبيل.

ويحلل الدكتور محمد حسين هيكل سبب قيام الإمبراطورية الإسلامية إلى الرسالة الإسلامية وما جاءت به من حرية ومساواة، وما فى الإسلام من مبادىء سامية، وهذه المبادىء السامية هى سر قوة هذه الحضارة.

أما عن أسباب تدهور هذه الإمبراطورية، فإنه يقول:

ظلت الإمبراطورية الإسلامية قائمة قوية ما جعلت هذه الرسالة الإنسانية السامية غايتها. ولقد كانت موشكة أن تنشىء على أساس من هذه الرسالة، دولة عالمية تنتظم أمم ذلك العهد جميعًا، لكن (دورة الفلك دارت)، فإذا الحرية انقلبت جمودًا، وإذا الإخاء والمساواة يذبلان أمام سلطان الباطشين من الحكام المستبدين. عند ذلك بدأ تدهور الإمبراطورية وانحلالها.

ويقول أيضًا :

لم يكن ذلك عجبًا والحياة الإنسانية فكرة ورسالة، وليست أداة يوجهها من شاء إلى ما شاء، والحياة الإنسانية القائمة على الفكرة مثمرة دائمًا، موجهة أبناءها جميعًا إلى ألوان من النشاط تزيدها قوة، وتدفع إليها كل يوم حيوية جديدة.

فإذا انطفأ نور الفكرة لم يبق للرسالة وجود، وأنى لهذه الحياة الإنسانية أن يتوارى كل ما فيها من ضياء، فلا يبقى منها إلا المظهر المادي، أو المظهر الحيواني للوجود.

ولا قيام لإمبراطورية على أساس من المادة ولا من المظهر الحيواني، ولذلك انحلت الإمبراطورية الإسلامية، لأن الرسالة التى آمن بها المسلمون الأولون توارت وراء الحجب.

ويتساءل الدكتور هيكل:

أفقدر لها أن تبعث من جديد؟

ذلك ما اعتقده، وعلمه عند ربي.

★★★

والخلاصة أن الحضارة الإسلامية تدفعها قوتها الذاتية، وأن من أسباب تدهور الأمم الإسلامية، بعدها عن الفهم الحقيقى لدينها الوسطي، ولا يتفق هؤلاء عن الغلو، وبعد حكامهم عن الشطط والترهيب، واتخذوا عن الإسلام مرآة تعكس تصرفاتهم، لتغير حال المسلمين، وما رأينا تلك الصور التى أساءت للإسلام والمسلمين.

..فلا الإسلام أمر بالقتل والإرهاب بلا ذريعة، ولا الإسلام أمر بإخراج جثث الموتى من قبورهم والتنكيل برفاتهم .

ولا الإسلام أمر أن بأخذ البرئ بجريرة المجرم. ولا الإسلام نادى بالتشدد والغلو فى الأحكام، بل إنه هو دين الرحمة والتوبة،

obeikandl.com

والحرية والمساواة، وأن الإنسان لا يستعبد وقد ولدته أمه حرًا..!

فوجه الإسلامى الحضارى وجه مشرق.

والمد الحضارى للإسلام وصل إلى مختلف أرجاء العالم، والذين يقولون أن الإسلام، انتشر بحد السيف واهمون، بدليل إنه انتشر فى إفريقيا عن طريق الطرق الصوفية، وانتشر فى اندونيسيا عن طريق التجار المسلم، فلم يرتفع سيف ولا وجه خنجر لأحد، بل كانت أخلاق المسلمين وتعاملاتهم مع الآخر دافعًا لدخولهم الإسلام. وانتشار الإسلام الآن فى بلاد مختلفة من أمريكا، وأوربا لأكبر دليل على ذلك. بل هناك العديد من دخل الإسلام من علماء ومفكرى الغرب بعد أن درسوه ووجدوا ما فيه وما يدعو إليه من الحرية والمساواة والإخاء، والتعاطف الإنسانى والاجتماعى مما حدا بهم إلى الدخول فيه.

وفى كتاب «الإسلام كبديل» للدكتور مراد هوفمان، وهو ألمانى وكان سفيرًا لألمانيا فى المغرب، ودخل الإسلام، وألف كتابه هذا مشيدًا بالدور الهام للدين الإسلامي، وأن الغرب بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، سيرون فى الإسلام العدو!

وفى مقدمة هذا الكتاب كلمة حق لعميدة الاستشراق (أنا مارى شميل)، تقول فيها:

«المرء عدو ما يجهل».

كلمة تنسب إلى على بن أبى طالب (رضى الله عنه) ابن عم النبى ﷺ وزوج ابنته فاطمة الزهراء، ورابع الخلفاء

الراشدين، رضى الله عنهم أجمعين، وأول إمام لدى الشيعة، الواقع أن الجهل يورث الكراهية والبغضاء، وأن عدم المعرفة، الذى ينجم عن الخوف، حقيقة يسجلها دارسو العلاقات بين الأفراد، وبين الدول بعضها ببعض، وذلك يدل على تقلب العصور وترد على من تصور المسلمين جماعة من الهمجيين وبرابرة، كما صورهم فنانو العصور الوسطى بقولها:

«والحق إن تلك اللوحات وهذه الصور اليوم تستندان إلى التأويل الخطأ الظالم، والشرح الآثم، والذى يستطيع كل من درس الحضارة الإسلامية أو خالط المسلمين أن يصوّبه ويبين خطأه وفساده.

لكننا ينبغى أن نلتمس العذر لنصارى القرون الوسطي، فقد عرفوا أن الإسلام تلا المسيحية فظنوا أنه زندقة وارتداد عن الدين المسيحي، لهذا شاعت الأسطورة التى زعمت أن محمدًا لم يكن سوى كاردنيال كاثوليكى خرج مع البابا – بل قد ظن بعضهم أن الإسلام نوع من الوثنية أو الديانات المجهولة البائدة لعصور ما قبل التاريخ (ولهذا نجد حتى فى أشعار الرومانسيين الألمان تصورًا لم ينطمس أثره حتى اليوم للمعبود الذهبى الصورة: ماهومت أى محمد) وذلك التصور العجيب تشويه وإجحاف لدين جوهره الوحدانية المطلقة، فهو لايعترف سوى بالله ربًّا، ويشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ (ولد علم ٥٧٠ هـ وتوفى عام ٦٣٢ هـ) ..

ولقد دأب محمد ﷺ نفسه على التأكيد أنه بشر يوحى إليه.

وتقول:

الواقع أن الانتصارات السياسية للأمة الإسلامية التى أخذ آنذاك فى الازدياد بشكل مذهل، حتى تجاوزت عام ٧١١ هـ مضيق جبل طارق إلى الغرب، وذلك لترسى قواعد الحضارة المشرقة فى الأندلس، وامتدت فى العام ذاته إلى ما وراء النهر واصفة الأسس التى عليها قامت صروح المجالات الغنية بإشعاعات الإسلام الخصبة المتنوعة فى أواسط أسيا، وامتدت كذلك فى تلك الفترة إلى مراكز الحضارة الهندية فى الهند والسند (جنوب الباكستان الحالية) فصبغتها بصبغة الإسلام، وضمتها إلى عقد الخلافة (الأموية). هذا الامتداد الشاسع ما كان ليهدئ من روع الغرب المسيحى الذى لمس بأسس الخلافة الإسلامية وتفوقها سياسيًا وحربيًا.

من المفهوم إذن أن يخشى الغرب تلك القوة الغالية آنذاك فى الوقت نفسه، أصبحت أسبانيا مركز إشعاع حضارى بين أوربا والعالم الإسلامى، وحتى يومنا هذا تشهد الحضارة مصطلحات لا حصر لها فى ميادين العلوم الطبيعية والطب والفلك والحضارة بصفة بعامة ناطقة بتأثير الحضارة الإسلامية الرفيعة فى الأندلس، حيث أظلت اليهود والنصارى والمسلمين بنية واحدة، سادها الوئام والتسامح والتلاقى الفكرى والحضاري. ولا نظن أن ذلك الصرح الحضارى الرائع تكرّر وجوده فى أية بنية متحضرة حتى يومنا هذا.

وتتحدث هذه المستشرقة المستنيرة الفاهمة للحضارة الإسلامية عن القرآن وأثره، وعن مختلف العلوم المنبثقة عنه، وكيف أن الإسلام يحث على السعى ويؤكد ذلك:

«وأن ليس للإنسان إلا ما سعي» (سورة النجم ٣٩).

وتقول: «وينسب إلى الرسول ﷺ حديث مفاده أن الدنيا حرث الآخرة، فكل عمل مأجور ثوابًا أو عقابًا» .«ولا تكسب كل نفس إلا عليها» (سورة الأنعام آية١٦٤).

وبعد أن تعدد فضائل الإسلام فتقول:

«أخيرًا ينبغى ألا ننسى «بيْتى جوته» فى الديوان الشرقى الغربى الذى يشهد له بالبصر العميق فى عالم الفكر الإسلامى :

إن يك الإسلام معناه القنوت فعلى الإسلام نحيا ونموت

★★★

وإذا قرأنا ما كتبه الدكتور «مراد هوفمان» نفسه فى كتابه (الإسلام كبديل) نراه يحدثنا عن الإسلام، وكيف انتشر بسرعة البرق فى الشرق والغرب، وأنه انتشر فى بعض الدول الإفريقية بلا حرب ولا قتال، ثم يقول :

«وبعد ذلك ينفرد الإسلام بأنماط سلوكية تتمثل فى الفرائض والعبادات وقواعد الإسلام الخمس إلى جانب الشهادة:

١. شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ .

٢. إقامة الصلاة (الصلوات المفروضة) .

٣. إيتاء الزكاة .

٤. صوم رمضان .

٥. حج البيت من استطاع إليه سبيلا .

هذه القواعد الخمس وحدها كافية لبيان أن الإسلام دين وعمل، عبادة وأفعال، حتى الصلاة نفسها، وهى صلة روحية مصحوبة بالعمل أو الفعل المتجلى فى المشاركة الجسدية لأداء هذا الفرض . الإسلام يلح على الإيمان والعمل معًا، كما فى سورة العصر المكية :

« والعصر، إن الإنسان لفى خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» سورة العصر .

★★★

ولو تحدثنا عن الذين قرأوا عن الإسلام، وفهموا تعاليمه، ومدى إعجابهم بالإسلام كدين وحضارة ومنهاج حياة، لرأينا العشرات من مؤرخى الغرب الذى انبهروا بالإسلام وحضارة الإسلام، وتحدثوا عنه بما هو جدير به عظمة وإجلالا.

وفى نفس الوقت نرى أيضا على العكس بعض مؤرخى الغرب ومستشرقيه الذين حاولوا أن يدسوا السم فى العسل، ويصفوا الإسلام بما ليس فيه، وذلك راجع إلى عقائدهم القديمة

من الإسلام منذ أيام الحروب الصليبية.

★★★

والإسلام هو الإسلام،

إنه دين القيم والتقدم والحضارة والروحية والشفافية الرائعة، وقد ينحرف بعض المسلمين فى فهمهم للإسلام، وتشددهم بلا مبرر، وتعصبهم الغبي، وهذا يرجع إلى فهمهم ولا يرجع للإسلام العظيم .

وقد يوجد بعض الحكام الذين أداروا ظهورهم لما فى الإسلام من تسامح وقيم نبيلة، فيلجأون إلى العنف والإرهاب. ليثبت حكمهم – فى ظنهم – وهذا العيب أيضا فيهم وليس من الإسلام فى شيء، وما رأيناه من صور يندى لها الجبين من بعض حكام المسلمين فى مختلف العصور، من قسوة مفرطة، وتوحش فى معاملة شعوبهم، وتجاهل لأحكام الإسلام نفسه، فلا يرجع كل ذلك إلى الإسلام، إنما يرجع إلى تلك النفوس المريضة التى تعشق السلطة، ولا تعترف أنهم جاءوا لخدمة شعوبهم لا سوط عذاب على هذه الشعوب.

وعلى كل حال، لقد ذهب هؤلاء الطغاة، وانتهت حياتهم، وفرغ التاريخ من سيرتهم بأن ألقاهم فى زوايا النسيان، وبقى الإسلام، وحضارة الإسلام، نور هداية للناس فى كل العصور، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .